الكتاب الاندلسيون

ميزة النثر

تأثر الاندلسيين بالمشارقة . مجاراتهم إياهم في سائر الفنون .

تأثر اهل الاندلس المشرقيين في النثر، كما تأثروهم في الشعر، فترسموا خططهم في اساليب الانشاء، والوان التعبير، وجاروهم في نظام الدواوين، واستيزار الكتاب والشعراء، وتعددت اغراضهم وفنونهم، تعددها عند اولئك . فمنها الترسل على ضروبه . ومنها انشاء الكتب المصنفة في العلم والادب . ومنها الانشاء الخطابي، وهو اضعف الفنون لضعف الفصاحة الفطرية عندهم .

الترسل

اصحابه وزراء ومقربون من رجال الحكم . تطوره من المطبوع الى المصنوع . غلبة الصناعة عليه . جفاء معانيه . اغراض الترسل .

ارتفع شأن الترسل في الاندلس، كما ارتفع في الشرق، لان الذين تعهدوه كانوا اما وزراء، واما مقربين الى ولاة الامور . فعززوا هذا الفن، ونشروا لواءه، وصاروا به الى التنميق والتزيين . وكان تطوره عندهم يجري على سنن تطوره في الشرق، فهو في عصوره الأُوَل، مرسل مطبوع، لا يلتزم فيه سجع، ولا يتكلف فيه توشية، وانما هي البلاغة تقضي بعض الاحيان بان يسجعوا ويوشّوا دون انتقاص في الطبع، ولا ازراء بالمعنى ، ولنا في رسائل ابن زيدون ، وابن شهيد، صور واضحة للنثر الترسلي في إبّان ازدهاره . فهو اشبه شيء بنثر ابن المقفع والجاحظ وامثالهما من بلغاء الكتاب المطبوعين .

ثم صار الترسل الى تكلف السجع والتزيين ، وتقليب الجمل على المعنى الواحد ، والاكثار من الأدعية والامثال، والشواهد الشعرية ، ولكن على غير افساد في الذوق، او اهمال للمعنى، كما في رسائل ابن بُرد الاصغر[1] وابن عبدون، وابن خفاجة، وابن الحدّاد . وهو اشبه بترسل العباسيين في العصر الثالث والرابع .

وما آذن القرن السادس للهجرة بالافول حتى غلبت الصناعة على الفن، واتسعت دائرة التكلف ، فاذا الانشاء في القرن السابع والثامن عبارات مرصوفة، والفاظ مترادفة مملة، وتلميحات تاريخية وبيانية لا حد لها ، ومعان جافية تافهة، وصور شتى من المسجوع والموزّى والمتجانس، مما تجد له امثلة في رسائل ابن الخطيب واشباه ابن الخطيب .

---

(١) هو ابو حفص الاصغر احمد بن برد ، شاعر ، كاتب ، حسن الديباجة ؛ عاش زمن الدولة العامرية في قرطبة .

وتناولوا في ترسلهم الاخوانيات على انواعها، والمقدمات بعد ظهورها في المشرق، ومقدمات الكتب، وشتى الاوصاف والنعوت، ولكنها لم تخل من مجون وتعهر. واحسنها ما جاء في ذكر الطبيعة، والكلام على مناظرة الازهار والبلدان، فانهم ابدعوا في هذا الفن، وانفردوا به دون سواهم.

واليك امثلة من نثرهم على اختلاف العصور، ففيها بيان لانواع الترسل، وتطوره بين عهد وآخر. فمنها رسالة ابن زيدون الجدّية، ورسالته الهزلية. والاولى كتبها وهو مسجون الى ابن جَهور، صاحب قرطبة، يستعطفه. والثانية كتبها على لسان ولّادة الى الوزير ابن عبدوس منافسه في حبها، يهجوه ويتهكم به. قال من رسالته الجدية:

« هٰذَا ٱلْعَتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ، وَهٰذِهِ ٱلنَّبْوَةُ[1] غَمْرَةٌ[2] ثُمَّ تَنْجَلِي. وَهٰذِهِ ٱلنَّكْبَةُ: « سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ. » وَلَنْ يُرِيبَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ أَبْطَأَ سَيْبُهُ[3] أَوْ تَأَخَّرَ، غَيْرَ ضَنِينٍ، غَنَاؤُهُ.[4] فَأَبْطَأُ ٱلدِّلَاءِ فَيْضاً أَمْلَؤُهَا[5]، وَأَثْقَلُ ٱلسَّحَائِبِ مَشْياً أَحْفَلُهَا.[6] وَأَنْفَعُ ٱلْحَيَا مَا صَادَفَ جَدْباً[7]، وَأَلَذُّ ٱلشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلًا.[8] وَمَعَ ٱلْيَوْمِ غَدٌ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، لَهُ ٱلْحَمْدُ عَلَى ٱهْتِبَالِهِ[9]، وَلَا عَتْبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ:

فَإِنْ يَكُنِ ٱلْفِعْلُ ٱلَّذِي سَاءَ، وَاحِداً، فَأَفْعَالُهُ ٱللَّاتِي سَرَرْنَ، أُلُوفُ

وقال من رسالته الهزلية، وقد التزم السجع في اكثرها، ولكنه سجع لا يفسد الطبع:

« أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا ٱلْمُصَابُ بِعَقْلِهِ، ٱلْمُوَرَّطُ بِجَهْلِهِ[10]، ٱلْبَيِّنُ سَقَطُهُ، ٱلْفَاحِشُ

---

(١) النبوة: الجفاء. (٢) الغمرة: الشدّة. (٣) سيبه: عطاؤه. (٤) غناؤه: نفعه. (٥) لان الدلو اذا تدفق عليها الماء بقوة وملأها سريعاً فاضت بقوة ونقصت، واما اذا فاضت بطيئة كانت أحفل، لانها تمتلئ على مهل. او لان الدلو اذا انزلت الى البئر، وكان فيضها عند اصعادها بطيئاً تلقاها الممتاح املأ مما لو تذبذبت بين جدران البئر وتدفقت. (٦) احفلها: املؤها. (٧) الحيا: المطر. الجدب: القحط والمحل. (٨) الغليل: حر الظمإ. (٩) اهتباله: اغتنامه. اي اغتنام اجله. (١٠) المورَّط: الموقَع في الورطة وهي الامر الشاق يعسر التخلص منه.

غَلَطَهُ ، ٱلْعَاثِرُ فِي ذَيْلِ ٱغْتِرَارِهِ . ٱلْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ . ٱلسَّاقِطُ سُقُوطَ ٱلذُّبَابِ عَلَى ٱلشَّرَابِ ، ٱلْمُتَهَافِتُ تَهَافُتَ ٱلْفَرَاشِ عَلَى ٱلشِّهَابِ . فَإِنَّ ٱلْعُجْبَ أَكْذَبُ ، وَمَعْرِفَةَ ٱلْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصْوَبُ . وَإِنَّكَ رَاسَلْتَنِي مُسْتَهْدِيًا[1] مِنْ صِلَتِي[2] مَا صَفِرَتْ مِنْهُ أَيْدِي أَمْثَالِكَ . مُتَصَدِّيًا مِنْ خُلَّتِي[3] لِمَا قَرَعْتُ دُونَهُ أُنُوفَ أَشْكَالِكَ . »

ومنها رسالة ابي عامر بن شهيد في صفة بعوضة ، وله الباع الطويل في الوصف والتصوير :

« ٱلْبَعُوضَةُ مَا لِكَةٌ ، لَا حِسَّ لَهَا سِوَاهَا[4] ، تَحْقِرُهَا عَيْنُ مَنْ يَرَاهَا ، تَمْشِي إِلَى ٱلْمَلِكِ بِنَدْبِهَا[5] ، وَتَضْرِبُ فِي بُحْبُوحَةِ[6] دَارِهِ بِطَبْلِهَا ، تُؤْذِيهِ بِإِقْبَالِهَا ، وَتُعَرِّفُهُ بِإِرَاقَةِ دَمِهِ مَا لَهَا . فَتُعْجِزُ كَفَّهُ ، وَتَرْغَمُ أَنْفَهُ ، وَتُضَرِّجُ خَدَّهُ ، وَتَفْرِي لَحْمَهُ وَجِلْدَهُ . زَمْجَرَتُهَا تَسْلِيمُهَا ، وَرَمْحُهَا خُرْطُومُهَا ، تُذَلِّلُ صَعْبَكَ إِنْ كُنْتَ ذَا قُوَّةٍ وَعَزْمٍ ، وَتَسْفِكُ دَمَكَ وَإِنْ كُنْتَ ذَا حِلْفٍ[7] وَعَسْكَرٍ ضَخْمٍ . تَنْقُضُ[8] ٱلْعَزَائِمَ وَهِيَ مَنْقُوضَةٌ ، وَتُعْجِزُ ٱلْقَوِيَّ وَهِيَ بَعُوضَةٌ ، أَرِنَا ٱللَّهُ عَجَائِبَ قُدْرَتِهِ ، وَضَعْفَنَا عَنْ أَضْعَفِ خَلِيقَتِهِ . »

ومنها ما كتبه ابن برد الاصغر في المناظرة بين الازهار ، مبتدعاً فنًّا جديداً في اسلوبه قصصي ، وخياله لطيف . فقد اراد ان يفضل الورد على سائر الازهار فانطقها وجعلها تجتمع وتتحادث ، وتبايعه بالرئاسة . ودونك بعض ما جاء في المبايعة :

« ثُمَّ قَامَ ٱلْخِيرِيُّ[9] فَقَالَ : وَٱلَّذِي أَعْطَاهُ ٱلْفَضْلَ دُونِي ، وَمَدَّ لَهُ بِٱلْبَيْعَةِ يَمِينِي ، مَا ٱجْتَرَأْتُ قَطُّ إِجْلَالًا لَهُ ، وَٱسْتِحْيَاءً مِنْهُ عَلَى أَنْ أَتَنَفَّسَ نَهَارًا ، أَوْ أُسَاعِدَ فِي لَذَّةٍ صَدِيقًا أَوْ جَارًا ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُ ٱللَّيْلَ سِتْرًا . »

---

(١) مستهدياً : طالباً هدية . (٢) صلتي : جائزتي . (٣) خلّتي : صداقتي . (٤) لا حسّ لها سواها : اي مع انها ذات ملك ، لا صوت لها الا منها . (٥) بندبها : بصوتها ودعائها . (٦) بحبوحة : وسط . (٧) الحلف : العهد بين القوم ، والصداقة . (٨) تنقض : تهدم وتحل وتكسر . (٩) الخيري : المنثور الاصفر .

ومنها ما كتبه ابن خفاجة في وصف نزهة، وهو يلتزم السجع والصناعة، ولكن بلاغته لا تنحط :

«ذَهَبْتُ فِي لُمَّةٍ[١] مِنَ ٱلْإِخْوَانِ نَسْتَبِقُ إِلَى ٱلرَّاحَةِ رَكْضاً، وَنَطْوِي ٱلتَّفَرُّجَ[٢] أَرْضاً . فَلَا نُدْفَعُ إِلَّا إِلَى غَدِيرٍ نَمِيرٍ[٣]، قَدِ ٱسْتَدَارَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ قَرَارَةٍ[٤] سَمَاءٌ[٥]، سَحَائِبُهَا غَمَاءٌ[٦]، وَٱنْسَابَ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ حُبَابٌ[٧]، جِلْدُهُ حَبَابٌ[٨]، فَتَرَدَّدْنَا بِتِلْكَ ٱلْأَبَاطِحِ[٩] نَتَهَادَى[١٠] تَهَادِيَ أَغْصَانِهَا، وَنَتَضَاحَكُ تَضَاحُكَ أَقْحُوَانِهَا . وَلِلنَّسِيمِ، أَثْنَاءَ ذٰلِكَ ٱلْمَنْظَرِ ٱلْوَسِيمِ، تَرَاسُلُ وَشْيٍ، عَلَى بِسَاطِ وَشْيٍ[١١] . فَإِذَا مَرَّ بِغَدِيرٍ نَسَجَهُ دِرْعاً[١٢] وَأَحْكَمَهُ صُنْعاً . وَإِنْ عَثَرَ بِجَدْوَلٍ شَطَّبَ[١٣] مِنْهُ نَصْلاً، وَأَخْلَصَهُ صَقْلاً، فَلَا تَرَى إِلَّا بِطَاحاً[١٤]، مَمْلُوءَةً سِلَاحاً، كَأَنَّمَا ٱنْهَزَمَتْ هُنَالِكَ كَتَائِبُ فَأَلْقَتْ بِمَا لَبِسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَضْقُولٍ، وَسَيْفٍ مَسْلُولٍ . »

ومنها رسائل ابن الخطيب ومقاماته، وهي مملة في اكثرها لطولها وتكلفها، وجفافها، وغلبة الصناعة عليها . مثال ذلك قوله من رسالة :

«سَيِّدِي ٱلَّذِي هُوَ فَصْلُ جِنْسِهِ[١٥]، وَمَزِيَّةُ يَوْمِهِ عَلَى أَمْسِهِ، فَإِنِ ٱفْتَخَرَ ٱلدِّينُ

---

(١) اللمة : الصاحب في السفر للواحد والجمع . (٢) التفرج : تكشف الغم . (٣) نمير : ماء ناجع عذباً كان او غير عذب . (٤) القرارة : القاع المستدير يجتمع فيه ماء المطر . (٥) سماء : استخدم هنا معناها المجازي في قوله استدارت، وهو المطر، ومعناها الحقيقي في قوله سحائبها غماء . (٦) غماء : لا فرجة فيها . (٧) التلعة : ما ارتفع من الارض . الحُباب : الحية وهو هنا مستعار للجدول والنهر . (٨) الحَباب : نفاخات الماء . (٩) الأباطح : جمع ابطح وهو المسيل الواسع العريض فيه دقاق الحصى . (١٠) نتهادى : نتمايل (١١) الوشي الاول بمعنى الوشاية، والوشي الثاني بمعنى التوشية ويريد به الزهر . (١٢) قوله نسجه درعاً : اخذه من قول الشاعر :

نَسَجَ الريحُ على الماء زَرَدْ ... يا لَهُ درعاً منيعاً لو جَمَدْ

(١٣) شطّب : اي جعل فيها خطوطاً كخطوط نصل السيف . (١٤) البطاح : جمع بطحاء، وهي المسيل الواسع فيه دقاق الحصى . (١٥) فصل جنسه : هذا من كلام المناطقة في التعريف بالحد الحقيقي، وهو تعيين الشيء بجنسه وفصله . تقول : الانسان حيوان ناطق، فالحيوان جنس يشمل الانسان والبهيمة، والناطق فصل يميز نوع الانسان عن نوع البهيمة . وهنا ابن الخطيب يجعل ممدوحه الفصل بين الانسان والبهيمة، اي انه جعله النطق نفسه .

مِنْ أَبِيكَ بِبَدْرِهِ[1] أَفْتَخِرَ مِنْكَ بِشَمْسِهِ . زَحْلَتُ عَنِ ٱلنَّشْإِ وَٱلْقَرَارَةِ ، وَمَحَلِّ ٱلصَّبْوَةِ وَٱلْغَرَارَةِ[2] ، فَلَمْ تَتَعَلَّقْ نَفْسِي بِذَخِيرَةٍ ، وَلَا عَهِدِ جِيرَةٍ خِيرَةٍ ، كَتَعَلُّقِهَا بِتِلْكَ ٱلذَّاتِ ٱلَّتِي لَطُفَتْ لَطَافَةَ ٱلرَّاحِ ، وَٱشْتَمَلَتْ بِٱلْمَجْدِ ٱلصُّرَاحِ[3] ، شَفَقَةً أَنْ تُصِيبَهَا مَعَرَّةٌ[4] ، وَٱللهُ تَعَالَى يَقِيهَا ، وَيَحْفَظُهَا وَيُبْقِيهَا . إِذِ ٱلْفَضَائِلُ فِي ٱلْأَزْمَانِ ٱلرَّذْلَةِ غَوَائِلُ ، وَٱلضِّدُّ عَنْ ضِدِّهِ مُنْحَرِفٌ بِٱلطَّبْعِ وَمَائِلٌ[5] .

---

(١) بدر : اسم والد الممدوح . (٢) القرارة : المستقَر . الصبوة : جهلة الفتوة . الغرارة : الغفلة عن الامور . (٣) الصُراح : الخالص من كل شيء . (٤) معرّة : اذية . (٥) يقول : الفضائل تغتال اصحابها في الايام الرديئة الخسيسة ، لان اكثر الناس ارذال ، فاذا رأوا فاضلاً كرهوه وانحرفوا عنه لمضادته لهم .

التصنيف والمصنفون

تعزيز انواع العلوم . استنساخ الكتب .

قام التصنيف الى جانب الترسل، فلم يترك الاندلسيون علماً او فناً ظهر في المشرق الا وقد بحثوا فيه، ونالوا قسطاً منه، قل او كثر. وكان لرحلاتهم الى الشرق ورحلات المشرقيين اليهم، وتنافس ملوكهم في تعزيز العلوم، واستقدام العلماء واستنساخ الكتب، وانشاء المدارس والمكاتب،[1] اثر كبير في بث النهضة العلمية بصقع الاندلس .

وتباينت درجات انشائهم بتباين اغراض مصنفاتهم، وكانت الادبية ارقاها لغة، واصفاها فناً. ولم يسلم بعضها من صناعة التزيين والتزام السجع كالذخيرة لابن بسّام، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان .

---

(١) لم تكن تخلو قرية في الاندلس من مدرسة صغيرة ، ما عدا كبريات المدارس في المدن . وكان للطب اربع مدارس في قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية، يؤمها التلاميذ على اختلاف مللهم ونحلهم . وبلغ عدد المكاتب نحو ستين مكتبة اعظمها مكتبة قرطبة، وقد اتينا على ذكرها في اللمحة التاريخية .

علوم اللغة

المعاجم . الصرف والنحو . الشروح اللغوية .

كثر المشتغلون باللغة من الاندلسيين والمشرقيين الذين هاجروا الى الاندلس، فتركوا طائفة نفيسة من المعاجم والشروح اللغوية، وكتب الصرف والنحو؛ واشتهر منهم ابو علي القالي[١] صاحب الأمالي في اللغة والنوادر؛ وابو بكر الزَبيدي[٢] وله مختصر العين، ولحن العامة، والواضح في اللغة، وطبقات النحويين، والابنية في النحو؛ وابن سِيده[٣] وله المُحكَم في اللغة، وهو معجم مشهور، في اجزاء عدة؛ والمخصص وهو في سبعة عشر مجلداً، مرتب على معاني اللفظ كفقه اللغة والالفاظ الكتابية . ومنهم الأَعْلَم الشَنْتَمَري[٤] وله شرح الجمل في النحو للزجّاجي، وشرح ديوان المتنبي، وديوان زهير، والشعراء الستة . وابن خَرُوف[٥] وله شرح كتاب سيبويه، وكتاب الجمل للزجّاجي . والشَريشي[٦] وله شروح ثلاثة لمقامات الحريري، شرح كبير ووسط وصغير . وهناك غيرهم كثيرون .

---

(١) قدم ابو علي القالي من الشرق الى الاندلس في زمن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠ هـ. (٩٤١ م) واستوطن قرطبة وألف امالية للحكم بن الناصر، ومات بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ. (٩٦٦ م) وكانت ولادته بمنازك من ديار بكر سنة ٢٨٨ هـ . (٩٠٠ م) . (٢) كان ابو بكر محمد الزبيدي مؤدبًا لهشام المؤيد بن الحكم ؛ سكن في قرطبة ، واصله من اشبيلية وتوفي بها سنة ٣٧٩ هـ . (٩٨٩ م) وعاش ثلاثًا وستين سنة . (٣) هو ابو الحسن علي بن احمد المعروف بابن سيده من اهل مرسية ؛ وكان اعمى، وكان اعلم الناس بالغريب . توفي سنة ٤٥٨ هـ . (١٠٦٥ م) وعمره نحو الستين . (٤) هو ابو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالاعلم لانه كان مشقوق الشفة العليا . ولد في شَنْتَمَرِيَة من بلاد الاندلس سنة ٤١٠ هـ. (١٠١٩ م) واليها نسب، ورحل الى قرطبة، وكف بصره في آخر حياته . ومات باشبيلية سنة ٤٧٦ هـ . (١٠٨٣ م) . (٥) ابن خروف هو ابو الحسن علي بن محمد الحضرمي الاشبيلي توفي سنة ٦١٠ هـ . (١٢١٣م) . (٦) هو الكمال ابو العباس احمد من اهل شريش في الاندلس واليها نسب . اقام في بلنسية ثم رحل الى اشبيلية فالمشرق، ثم رجع الى شريش ومات بها سنة ٦١٩ هـ . (١٢٢٢م) وكانت ولادته سنة ٥٥٧ هـ . (١١٦١ م) .

العلوم الدخيلة

العلوم الطبيعية . العلوم الرياضية . الفلسفة والمنطق .
السياسة والاجتماع . التاريخ والجغرافية . الفنون والصنائع .

رحلت العلوم الدخيلة من الشرق الى الغرب، فتلقاها الاندلسيون اما من علماء المشارقة، واما من كتبهم، فكانت لهم ثم للاوربيين من بعدهم نورا وهدى . فلما تثقفوا بها، واختمرت في صدورهم، وامتزجت بافكارهم، تصدروا للتصنيف فيها، والتزيد من لبانها، حتى فاقوا المشرقيين في بعضها .

العلوم الطبيعية

فمنها العلوم الطبيعية كالطب والصيدلة، فقد اشتهر فيهما طائفة جليلة كابي القاسم الزهراوي[1] وكان بارعاً في تشخيص الامراض موفقاً في علاجها، وامتاز من اطباء الشرق المسلمين بتعاطيه الجراحة، واتقانه اياها، في حين ان الشرقيين كانوا يتحامون عنها ذهاباً منهم الى ان الدين يحرمها . فكان اطباؤهم لا يعرفون صفات اعضاء الانسان الا من مطالعتهم لكتب يونان . فاحيا اطباء الاندلس هذا الفن وعلى رأسهم ابو القاسم ؛ وكان ماهراً في بتر الاعضاء . واستخراج الاجسام التي تُبتلع فتعترض في الحلق . وله كتاب اسمه التصريف لمن عجز عن التأليف، جعله على قسمين الاول في الطب النظري، والثاني في الطب العملي او الجراحة، ترجم الى اللاتينية، واهتمّ اطباء الفرنجة بقسمه الجراحي .

ونبغ في الطب من الاندلسيين ابناء زُهر[2]، وهم اسرة عربية توارثت علم

---

(١) هو ابو القاسم خلَف بن عباس الزهراوي منسوب الى الزهراء في الاندلس ويسميه الفرنجة (Albucasis) توفي سنة ٥٠٠ هـ . (١١٠٦ م) . (٢) عرف منهم بالطب ابو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر الإيادي ؛ رحل الى الشرق فتطبب زمناً ثم عاد الى الاندلس

الطب خلفاً عن سلف كما توارثه ابناء بَخْتَيْشوع في العراق .

واحترف الطب اشهر فلاسفة الاندلس كابن باجة، وابن طُفَيل[١] وابن رُشد[٢] . واشتهر في علم النبات والعقاقير والادوية ابن البَيْطار[٣] وله كتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية .

العلوم الرياضية

ومنها العلوم الرياضية، فقد نبغ طائفة كبيرة في علم الحساب والهندسة والنجوم والموسيقى . وكان حظ التنجيم كحظ الفلسفة، فان اصحابه اضطهدوا ورموا بالزندقة، فصاروا يشتغلون به سرّاً، ولا يتظاهرون . ويذكر صاحب نفح الطيب ان اول من اشتهر في الاندلس بعلم الحساب والنجوم ابو عبيدة مسلم بن احمد المعروف بصاحب القبلة، لانه كان يُشرّق في صلاته، وكان عالماً بحركات الكواكب واحكامها . ومنهم ابو القاسم اصبغ بن السمح وكان بارعاً في علم النجوم والهندسة، وله كتاب المدخل في الهندسة، وكتاب كبير في الهندسة، وكتابان في الاسطرلاب، وزيج[٤]

ومات باشبيلية، فقام بعده ابنه ابو العلاء زهر بن عبدالملك، وله كتاب الادوية . توفي سنة ٥٢٥ هـ . (١١٣٠ م) . وخلفه ابنه ابو مروان عبد الملك بن زهر، وكان متصلا بعبد المؤمن خليفة الموحدين، وله مؤلفات عدة . وجاء بعده ولده ابو بكر محمد بن عبد الملك المشهور بعلمه وادبه وموشحاته . وكانت اخته وابنتها عالمتين بطب النساء . ونبغ بعده ولده ابو محمد عبدالله، وحظي عند الخليفة الناصر محمد بن يعقوب رابع خلفاء الموحدين، وتوفي مسموماً كأبيه سنة ٥١٩ هـ . (١١٢٥م) وهو في الخامسة والعشرين، وترك ولدين عني اصغرهما بصناعة الطب، واسمه ابو العلاء محمد .

(١) هو ابو بكر محمد بن عبد الملك القيسي، المعروف بابن طفيل، الفيلسوف الطبيب، وصاحب رسالة حي بن يقظان؛ وزر لابي يعقوب يوسف ثاني الخلفاء الموحدين، وتوفي سنة ٥٨١ هـ . (١١٨٥م) . (٢) هو ابوالوليد محمد بن احمد بن رشد ويسميه الفرنجة (Averrhoes) ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ . (١١٢٦م) واتصل بالخليفة الموحد ابي يعقوب يوسف . وهو اعظم فلاسفة الاندلس وفي مقدمة فلاسفة المسلمين؛ واشهرهم عند الاوربيين، مفكر حر وطبيب بارع؛ توفي بمراكش سنة ٥٩٥ هـ . (١١٩٨ م) ونقل الى قرطبة . (٣) هو ضياء الدين محمد بن عبدالله بن البَيطار النباتي الشهير، ولد بمالقة ورحل الى الشرق وسكن دمشق حتى مات سنة ٦٤٦ هـ . (١٢٤٨ م) . (٤) الزيج : كتاب تعرف منه احوال حركات الكواكب .

على مذهب اهند المعروف بالسند هند . ومنهم ابو القاسم بن الصفّار وكان عالماً بالهندسة والعدد والنجوم، وله زيج مختصر على مذاهب السند هند، وكتاب في عمل الاسطرلاب . ومنهم ابو الحكم عمر الكرماني من اهل قرطبة، وكان راسخاً في علم العدد والهندسة . ومنهم الفيلسوف ابن رشد قيل انه اول من تنبه للسُفَع[1] على وجه الشمس، وكتب عنها .

واما الموسيقى فقد نهضت نهضة عظيمة في الاندلس، واقبل عليها عامة الناس وخاصتهم، والفضل في ترقيتها لزرياب[2]، فانه ترك من اصواته بحراً زاخراً اغترف منه المغنون بعده . قيل ان محفوظاته من الاغاني بلغت عشرة الاف مقطوعة . وكان العود على اربعة اوتار، فزاد فيه وتراً خامساً، وهو الاوسط الاحمر . وكان مضرابه من الخشب، فجعله من قوادم النسر، وهي اللين على الاوتار والطف .

وكان لزرياب عشرة اولاد : ثمانية ذكور، وثنتان انثيان، وكلهم غنى ومارس الصناعة، وابرعهم في الذكور عبيدالله وعبد الرحمن وقاسم، وفي الاناث حمدونة .

---

(١) السُفَع : جمع سُفْعة وهي سواد اشرب حمرة . (٢) هو ابو الحسن علي بن نافع مولى المهدي الخليفة العباسي، فارسي الاصل، وزرياب لقب له غلب عليه في بلاده من اجل سواد لونه مع فصاحة لسانه، تشبيهاً له بطائر اسود حسن التغريد عندهم . وكان تلميذاً لاسحق الموصلي ببغداد، غنى بين يدي الرشيد مرة، فاعجب به واحبه، فحسده استاذه اسحق، وهدّده ان لم يرحل عن بغداد، واعطاه مالاً . فرحل زرياب الى المغرب، ثم سمت همته الى دخول الاندلس وكان عليها الحكم بن هشام ثالث امراء بني امية . فكتب اليه يستأذنه في الذهاب اليه، ويعلمه بمكانته من صناعة الغناء . فسر الحكم بكتابه وارسل اليه يجمل له المواعيد، فعبر زرياب بعياله بحر الزقاق الى الجزيرة الخضراء . فجاءته الاخبار بوفاة الحكم فهمّ بالرجوع . وكان معه منصور اليهودي المغني رسول الحكم اليه، فثناه ورغبه في قصد ابنه وخليفته عبد الرحمن الثاني، وكتب اليه بخبر زرياب، فجاء جواب عبد الرحمن يظهر رغبته فيه . وكتب الى عماله ان يحسنوا اليه ويوصلوه الى قرطبة . وامر خصيّاً من خصيانه ان يتلقاه ببغال وآلات حسنة، فدخل الاندلس سنة ٢٠٦ هـ . (٨٢١ م) فانزله عبد الرحمن في دار فخمة واجرى عليه وعلى اولاده المشاهرات، والعيديات، واقطعه من الضياع والبساتين ما يقوّم باربعين الف دينار، وكان يجالسه على النبيذ ويسمع غناءه .

الفلسفة والمنطق

ومنها الفلسفة والمنطق، فقد تلقاهما الاندلسيون عن كتب المشرقيين المنقولة والمصنفة، فانصرف الى دراستها جماعة من المفكرين مستهدفين لنقمة الفقهاء والعامة. وكان المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الخليفة الاموي معنياً بجمع كتب الحكمة وسائر العلوم، وجاء بعده محمد بن ابي عامر الحاجب المنصور، فشغف بالفلسفة وعزز جانبها، فنقم عليه الفقهاء، وتجهموه، فاسترضاهم بان احرق كل كتاب اتهموه.

وما انتصف القرن الخامس للهجرة الا كانت كتب الفارابي وابن سينا ورسائل اخوان الصفاء قد ذاعت في الاندلس وتداولتها الايدي، فنهضت الفلسفة نهضة لا بأس بها، ونبغ ابن باجة ابو الفلاسفة الاندلسيين، وله رسالة تدبير المتوحد، ورسالة الوداع في الترقي الروحاني والاتصال بالعقل الفعّال.

وبلغت الفلسفة اوجها في عهد الموحدين، ولاسيما زمن خلافة ابي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن، فانه فتح ابواب داره للفلاسفة، وقربهم ورفع شأنهم. فكان في بلاطه ابن طُفيل صاحب رسالة حي بن يقظان، ثم ابن رشد رأس فلاسفة الاندلس واشهر فلاسفة العرب عند الاوربيين.

وهناك مفكرون دينيون اطلعوا على الفلسفة والمنطق، ووقفوا على مذاهب الفرق الاسلامية، وغير الاسلامية، فاتخذوا فلسفتهم لتأييد مذهب ديني ينتحلونه، كما فعل ابن حَزْم[1] وكان في بدء امره شافعياً، فتعصب لمذهبه، وناضل عنه. ثم صار

---

(١) هو الفقيه ابو محمد علي بن احمد بن حزم فارسي الاصل، يرجع جده الاعلى يزيد الى بني امية بالولاء. ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ. (٩٩٤ م) وكان والده وزيراً للدولة العامرية التي استبدت بعرش امية وحجرت على الخليفة. وصارت الوزارة اليه بعد والده، فوزر للمستظهر بالله عبد الرحمن الخامس الخليفة الاموي، وزهد بالسياسة بعد زوال الدولة الاموية فانصرف الى العلم. وكان من تعصبه للظاهرية وسلاطة لسانه ان كرهه الفقهاء وحملوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، فاقصاه الملوك، واتلفوا كتبه. قيل انها بلغت اربع مائة مجلد في نحو ثمانين الف ورقة. فذهب الى كورة لَبْلَه في الاندلس، ومكث بها حتى مات سنة ٤٥٦ هـ. (١٠٦٣ م).

ظاهرياً، فكره جميع المذاهب من اجل مذهبه الجديد، وطعن عليها وندّد باصحابها وشنع على الفرق الاسلامية وسبها، ولم يسلم من شتائمه النصارى واليهود وسواهم من اصحاب الاديان والنحل . وكتابه الفِصَل[1]، في الملل، والاهواء والنحل، يريك من صاحبه علماً واسعاً، وعقلاً راجحاً، وتعصباً ذميماً .

وكان للفلسفة الاندلسية اثر بليغ في الافكار الاوربية ولاسيما فلسفة ابن رشد .

السياسة والاجتماع

ومنها السياسة والاجتماع، واشهر من صنف فيهما ابن حزم وابن ابي رَنْدَقة الطُرطوشي[2] . فاما الاول فله كتاب طوق الحمامة في فلسفة الحب وعلاماته وصفاته، واحوال المحبين وما يعتريهم ويعرض لهم . وفيه بحوث نفسية لا بأس بها . وهو، فيما نعهد، خير كتاب من نوعه في العربية .

واما الثاني فله سراج الملوك في سياسة السلطان ونظام الدولة، وصفات الوزراء والجلساء، وعلاقة السلطان ببيت المال، وغير ذلك مما يختص بسياسة الرئيس وشروط السيادة .

التاريخ والجغرافية

ومنها التاريخ والجغرافية، فقد كان لهما حظ وافر في الاندلس، ولاسيما الجغرافية فانها نهضت نهضة لم تلق مثلها في الشرق، اذ تحسنت بحوثها، ووضعت لها الخطط المنظمة . واما التاريخ فان اصحابه كانوا كالمشارقة يذكرون الحوادث والاخبار والخرافات من غير نقد ولا تمحيص .

(١) الفصَل، جمع فَصْلة : النخلة المنفولة من محلها الى محل آخر لتثمر . (٢) هو ابو بكر محمد بن الوليد القرشي الفهري، ويعرف بابن ابي رَنْدقة . ولد بطُرطُوشة (وقد تفتح الطاء الاولى) من بلاد الاندلس حوالي سنة ٤٥١ هـ . (١٠٥٩ م) واليها نسب . وتأدب على ابن حزم باشبيلية، ثم رحل الى الشرق، ومات باسكندرية سنة ٥٢٠ هـ . (١١٢٦م) .

واشهر المورخين ابن القُوطيَة[١]، وله تاريخ الاندلس من الفتح الى سنة ٢٨٠ هـ. (٨٩٣ م). وابن الفَرَضي[٢]، وله تاريخ علماء الاندلس. والمظفَّر بن الافطس[٣] صاحب بَطَليوس، وله المظفَري، وهو تاريخ في خمسين مجلداً يشتمل على مغازٍ وسير واخبار. وابو القاسم صاعد[٤]، وله طبقات الامم في ذكر العلوم عندهم. وابن حيَّان[٥]، وله المبين في تاريخ الاندلس، ستون جزءاً؛ والمقتبس في تاريخها ايضاً، عشرة اجزاء. والفتح ابن خاقان، وله قلائد العقيان في ذكر الملوك والوزراء والقضاة والفقهاء والادباء. وله ايضاً مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس؛ ذكر فيه من لم يذكرهم في القلائد. وابن بسَّام[٦]، وله الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة وادابها في القرن الخامس للهجرة. وابن بَشكُوال[٧]، وله الصلة وهو تكملة تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي، في مجلدين. والبيَّاسي[٨]، وله كتاب الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام؛ ابتدأ فيه بمقتل عمر بن الخطاب، وختم بخروج الوليد بن طريف الشاري على هرون الرشيد، وهو في مجلدين. وابن الأبَّار القُضاعي[٩]، وله تكملة الصلة؛ ذكر

---

(١) هو ابو بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية نسبة الى جدته سارة حفيدة غيطشه ملك القوط. ولد بقرطبة، وبرع في اللغة والحديث والاخبار والحفظ؛ وتوفي بقرطبة سنة ٣٦٧ هـ. (٩٧٧ م). (٢) هو ابو الوليد عبدالله بن محمد الازدي الفرضي ولد بقرطبة سنة ٣٥١ هـ. (٩٦٢ م) ورحل الى القيروان ومصر، ثم تولى قضاء بلنسية حتى مات سنة ٤٠٣ هـ. (١٠١٢ م). (٣) هو المظفر بن الافطس من ملوك الطوائف توفي سنة ٤٦٠ هـ. (١٠٦٧ م). (٤) هو ابو القاسم صاعد بن احمد بن صاعد قاضي طليطلة؛ ولد في المريَّة سنة ٤٢٠ هـ. (١٠٢٩ م) وتوفي سنة ٤٦٢ هـ. (١٠٦٩ م). (٥) هو ابو مروان حيَّان بن خلف بن حيَّان؛ ولد بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ. (٩٨٧ م) وتوفي سنة ٤٦٩ هـ. (١٠٧٦ م). (٦) ابن بسَّام الشَنْتَمَريّ توفي سنة ٥٤٢ هـ. (١١٤٧ م). (٧) هو ابو القاسم خلف بن عبد الملك بن بَشكُوال الخزرجي الانصاري القرطبي؛ ولد سنة ٤٩٤ هـ. (١١٠٠ م) وتوفي بقرطبة سنة ٥٧٨ هـ. (١١٨٢ م). (٨) هو ابو الحجاج يوسف بن محمد الانصاري البيَّاسي، منسوب الى بيَّاسة بلد في الاندلس؛ اشتهر بالحفظ والرواية. ولد سنة ٥٧٣ هـ. (١١٧٧ م) وتوفي بمدينة تونس سنة ٦٥٣ هـ. (١٢٥٥ م). (٩) هو ابو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي المعروف بابن الأبَّار، ولد في بلنسية وكتب لصاحبها محمد بن حفص، وتوفي سنة ٦٥٨ هـ. (١٢٥٩ م).

فيها اعيان الاندلس وادباءها . وله الحلة السيراء في اخبار المغرب من المائة الاولى للهجرة الى المائة السابعة؛ تبدأ بموسى بن نصير . وابن سعيد المغربي[1]، وله المُغرب في حلى المغرب، في نحو خمسة عشر مجلداً، ذكر به اخبار ملوك الاندلس والفاطميين والاخشيديين وبني ايوب وسواهم . ولسان الدين بن الخطيب، وله الاحاطة في تاريخ غرناطة، ثلاثة اجزاء، يفتتحه بقسم جغرافي، خطط فيه ولاية غرناطة وما يتبعها من القرى، وذكر عدات العلماء وازياءهم، والجند وسلاحهم، ومن نزل غرناطة من القبائل . وذكر ملوكها ووزراءها وقضاتها وفقهاءها وادباءها وزهادها، ومتصوفيها منذ الفتح الى زمنه .

واشهر الجغرافيين ابو عُبَيد البكري[2]، وله معجم ما استعجم؛ وهو معجم جغرافي للمواضع التي ورد ذكرها في اشعار العرب، وله ايضاً المسالك والممالك . والشريف الإدريسي[3]، رأس الجغرافيين، وله نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، صنفه لروجر الثاني ملك صقلية مطابقاً لكرة من فضة نقش عليها صور الاقاليم السبعة ببلادها وبحارها وانهارها ومسافاتها . وزاد على ما في الكرة وصف احوال البلاد كعمارتها، واجناس نباتها، وصناعتها وتجارتها، واشكال اهلها ومذاهبهم وازيائهم ولغاتهم . وجغرافية الادريسي اعتمد عليها الاوربيون قدماً في تقويم البلدان ولاسيما الشرق . وذكر جرجي زيدان[4] انه : « يؤخذ من خريطة محفوظة في متحف سان مرتين بفرنسا ان الادريسي كان على بينة من حقيقة منابع النيل فصورها بحيرات عند خط الاستواء كالتي اكتشفها اهل هذا التمدن في القرن الماضي ـ نعني فكتوريا نيانزا

---

(١) هو ابو الحسن نور الدين علي بن موسى بن سعيد ولد بغرناطة سنة ٦١٠ هـ . (١٢١٣م) ورحل الى مصر والعراق والشام، ودوّن ما شاهده في كتب عديدة . توفي سنة ٦٧٣ هـ . (١٢٧٤ م) . (٢) هو عبدالله بن عبد العزيز البكري اصله من مرسية، وسكن قرطبة؛ توفي سنة ٤٨٧ هـ . (١٠٩٤م) . (٣) هو ابو عبدالله محمد بن محمد الادريسي العلوي ولد بسبتة سنة ٤٩٣ هـ . (١٠٩٩م) وتثقف بقرطبة، ورحل في البلاد ثم اتصل بروجر الثاني ملك صقلية ووضع له جغرافيته الشهيرة . توفي سنة ٥٤٨ هـ . (١١٥٣ م) . (٤) جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية . ج : ٣ ص : ٨٥ .

والبرت نيانزا ـ رسمها الادريسي قبلهم بمآت من السنين » اهـ. وابن جُبَير،[1] وله كتاب رحلته ، وصف به ما شاهده من عجائب البلدان وبدائع صنائعها ، ومساجدها ودواوينها واحواها .

الفنون والصنائع

اقبل الاندلسيون على الفنون المختلفة يتعاطونها، فنبغوا بها، وبلغوا غاية الاتقان والجمال في بعضها . وكان لهم عناية فائقة بالعمارة ، فقد مزجوا الفن العربي بالقوطي، واستخرجوا منهما طرازاً مستعرباً رائعاً لا تزال آثاره ناطقة في القصور والمعابد وحسبك جامع قرطبة، وقصر إشبيلية، وحمراء غرناطة، فانهن من اعاجيب الزمان .

وشغفوا بالنحت والتصوير، فزينوا قصورهم وحدائقهم واحواضهم بالتماثيل والصور، ونقشوها على اوانيهم واثاثهم؛ حتى انهم نقشوا على اسطوانة في جامع قرطبة عصا موسى، وعلى اخرى اهل الكهف، وعلى غيرها غراب نوح .

ولما بنى الناصر الزهراء، وسماها باسم جاريته الحسناء، نقش صورة الجارية على باب المدينة، وانشأ في المدينة حوضاً عظيماً زخرفه بالنقش والتصوير، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً في صورة الانسان .

وبلغ من تقدم الفنون عندهم انهم حاولوا الطيران فنجحوا بعض الشيء، فقد

---

(١) هو محمد بن احمد بن جُبَير الكتاني ولد في بلنسية سنة ٥٣٩ هـ . (١١٤٤ م) ودرس على جماعة من الادباء والعلماء، وبرع في الشعر والادب، وسكن غرناطة ، ثم اولع بالاسفار فرحل رحلته الاولى الى مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية، وتفقد الآثار والصنائع واحوال البلدان واعلها ثم عاد الى غرناطة، وصنف رحلته المشهورة . ورحل ثانية بعد ان فتح صلاح الدين الايوبي بيت المقدس، وعاد الى غرناطة ثم انتقل الى سبتة . ورحل ثالثة من سبتة الى مكة فبيت المقدس، ثم تحول الى الاسكندرية فاقام بها يحدث حتى مات سنة ٦١٤هـ. (١٢١٧ م) . وطبعت رحلته الاولى في ليدن، وترجمت الى الايطالية، وترجم قسم صقلية الى الفرنسية .

حدثنا صاحب نفح الطيب ان ابا القاسم عباس بن فرناس[1]: «احتال في تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش، ومد له جناحين، وطار في الجو مسافة بعيدة، ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخره، ولم يدر ان الطائر انما يقع على زمكه[2]، ولم يعمل له ذنباً.» اهـ.

وكان مؤمن بن سعيد الشاعر معاصراً له فقال فيه من ابيات:

يَطِمُّ عَلَى ٱلْعَنْقَاءِ فِي طَيَرَانِهَا، إِذَا مَا كَسَا جُثْمَانَهُ رِيشَ قَشْعَمِ[3]

---

(١) عاش ابن فرناس في القرن الثالث للهجرة زمن امارة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الاموي. ملك من سنة ٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ. (٨٥٢ ـ ٨٨٦ م) وله فيه شعر حسن رواه ابن عبد ربه في العقد. (٢) الزمك: منبت ذنب الطائر. (٣) يطم: يعلو ويغلب. القشعم: النسر العتيق المسن.

الادب والادباء

المجاميع الادبية . العقد الفريد . جمع اداب الاندلس . الذخيرة . قلائد العقيان . النقد الادبي . التوابع والزوابع .

كان للاندلسيين قسط وافر في الادب نال منه خاصتهم وعامتهم، نساؤهم وصبيانهم . واستهواهم الشعر الجاهلي، فحفظوه ورووه، فأيد فيهم ملكة البلاغة . وانصرف منهم طائفة الى تصنيف المجاميع الادبية، فمنهم من جمع اداب الشرق دون ان يلتفت لفت بلاده الا في الندرة كابن عبد ربه صاحب العقد، فان كتابه اقدم مجموعة ظهرت في الاندلس، ومن اوائل المجموعات الادبية عند العرب، وفي مقدمتها جميعاً . ولكنه عني باخبار شعراء الشرق وخطبائه، وكتابه، ومغنيه وقيانه . واورد جمهرة من اقوالهم ونوادرهم وملحهم؛ ولم يرو شيئاً لأدباء الاندلس الا ما كان من قوله . وقلما روى لغيره في معرض كلامه على ملوك بني امية بقرطبة، فكأنه لم يجد في عصره اديباً اندلسياً يستحق الذكر ؛ وهذا ما حمل الصاحب بن عبّاد على ان يقول عندما انتهى اليه العقد : « هذه بضاعتنا ردت الينا . »

ويشتمل العقد على اخبار واقوال ونوادر لا تجدها الا به، ولولاه لذهبت ضياعاً . وفيه لمحات تاريخية عن الخلفاء والملوك والامراء وايام العرب في الجاهلية . وفيه فصول في العروض والطب والالحان . وهو خمسة وعشرون كتاباً باسم خمس وعشرين جوهرة من جواهر العقد؛ اولها كتاب اللؤلؤة في السلطان . وانشاؤه بليغ مطبوع مرسل، فيه ايجاز ووضوح وبهاء . طبع في ثلاثة مجلدات، ثم في اربعة .

ومنهم من جمع اداب اهل الاندلس دون سواهم كابن بسّام في الذخيرة . والفتح ابن خاقان في قلائد العقيان، ومطمح الانفس . وابن بَشكُوال في الصلة . غير انهم خلطوا اخبار الادباء باخبار الملوك والوزراء والفقهاء وسواهم، واكثروا من ذلك، فغلبت على كتبهم الصبغة التاريخية .

ويؤخذ عليهم انهم اعتمدوا الصناعة في انشاء مجاميعهم، فافسدوها بتكلفهم، ولاسيما الفتح في قلائده . ولم يكن لهم يد طولى في النقد الا ما كان من احكام شاملة ليس فيها غناء .

والنقد في الاندلس لم يرتفع له شأن الا عند ابي عامر بن شُهيد، حتى انه فاق نقد المشرقيين في بعض نواحيه . لان ابا عامر سلك طريقاً في كتابه التوابع والزوابع[1] لم يسلكه واحد منهم، فكان ينظر في نقده الى نفس الاديب، واعضاء جسده .

والتوابع والزوابع تحفة من تحف الادب، لم يبق منه الا فصول اوردها ابن بسام في الذخيرة؛ وهو قصص ادبية خيالية يجتمع فيها ابن شهيد بالادباء، وينتقدهم ويعارضهم في منظومهم ومنثورهم . ويكون ذلك بان يطير الى ارض التوابع والزوابع مع جني يقال له زُهير بن نُمير، يركبه على ادهمه، ويزيره شياطين الشعراء والكتاب، فتجري بينه وبينهم مساجلات ومناظرات، فمنهم من يجلهم ويعترف بفضلهم شأنه مع عُيَينة بن نَوفَل صاحب امرئ القيس، فانه تهيب الانشاد في حضرته، وهمّ بالخيصة . وشأنه مع حسن الدنّان شيطان ابي نواس، فقد ادركته منه الهيبة، واخذ في اجلاله لمكانه من العلم والشعر . ومنهم من يخزيهم ويخذلهم كما جرى له مع ابي الطبع طوق بن مالك تابع البحتري، فانه باراه في الانشاد، فاسود وجه ابي الطبع، وكر راجعاً ولم يسلِم . وكما جرى له مع زبدة الحقب جنّي بديع الزمان، فانه عارضه في وصف الماء، فلما سمع زبدة وصفه، غار في الارض وهو مبهوت خجل .

ويتخلل تلك الاقاصيص آراء في النقد متعددة، فمنها كلامه على تأثير النفس في الانشاء وهذا لم يسبق اليه فيما نعهد . قال : « مقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه . فمن كانت نفسه مستولية على جسمه من اصل تركيبه، كان مطبوعاً روحانياً، يُطلع صور الكلام والمعاني في اجمل هيآتها، واروق لباساتها . ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من اصل تركيبه، كان ما يُطلع من

---

(١) التوابع : الجن الذين يتبعون الانس، واحدها تابع وتابعة . الزوابع : جمع زوبعة وهي اسم لشيطان، او رئيس الجن .

الصور ناقصا عن الدرجة الاولى في التام والكمال.» اه. ومنها قوله في تأثير تركيب الاعضاء: «انهم يدركون بالطبيعة، ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، والباعثة لرقيق الدم في الشريان الى القلب. وزيادة غلظ اعصاب الدماغ، ونقصانها عن المقدار الطبيعي، وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة، من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه[1] ونتوء القمحدوة[2]، والتواء الشدق، وخزر العين[3]، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة[4].» اه.

ومهما يكن في هذه الاحكام من غموض ومجازفة يحولان دون اتخاذها قواعد مطردة، فانها دون شك خطوات مباركة خطاها ابن شهيد في مهيع النقد الحديث.

---

(١) فرطحة الرأس: عرضه. تسفيطه: محاكاته للسفط وهو وعاء كالقفة. (٢) القمحدوة: مؤخر القذال. (٣) خزر العين: انكسار بصرها وضيقها وصغرها، او نظرها بأحد الشقين، او حولها. (٤) الارنبة: طرف الانف. وانزواء الارنبة تجمعها وتقبضها.

عصر الانحطاط

(١٢٥٨ ـ ١٧٩٨ م و٦٥٦ ـ ١٢١٣ هـ)

« يبتدئ باستيلاء هولاكو على بغداد »
« وينتهي بدخول نابوليون الاول مصر . »

فصول البحث واغراضه

لمحة تاريخية

تفاقم الويلات . فيض العناصر العجمية . ميزة العصر .

الشعراء المحدثون (عصر الانحطاط)

ميزة الشعر .

الكتاب المحدثون (عصر الانحطاط)

ميزة النثر . انشاء المترسلين . انشاء المصنفين . العلوم والآداب .

لمحة تاريخية

تفاقم الويلات
فيض العناصر العجمية

الخروب والويلات . تحدير العقول . تكاثر العناصر الاعجمية . انحدار اللغة . عهد بني عثمان .

تركنا العصر العباسي الرابع[1]، والممالك الاسلامية نهبة الناهب، يتداولها الغزاة والفاتحون، ويقوّض عمرانها المغول المكتسحون، وتنتشر فيها العناصر العجمية انتشاراً مروّعاً، يتضاءل دونه العنصر العربي حتى يكاد يذوب ويضمحل . ولبسنا هذا العصر متزوفاً بالدماء، محفوفاً بالارزاء، ما تقر به عين، ولا يهدأ خاطر، لا تطمئن نفس، ولا يهجع ناظر . السيوف بين الهام والاعناق، والرماح في النحور والترائب . البلاد فريسة للبشق والتحريق، والنهب والتهديم . النساء مردفات، والاطفال بين سبيٍ وذبيح .

فالمغول بفارس يشنون الغارات على العراق والشام، ويوغلون في البلاد قتلاً وتخريباً، ويبتعثون الذعر امامهم، فينبعث كالوباء المنتشر . فما تناسى الناس هولاكو وفظائعه، الا ليبتلوا بتيمورلنك ومجازره[2] . والفرنجة بفينيقية وفلسطين يقتحمون الديار المصرية والشامية . والمماليك يجهدون في دفعهم عنها، ولكنهم يختلفون فيما

---

(١) ادباء العرب ج ٢ . ص ٤٦٣ . (٢) قصد تيمورلنك المغولي سورية سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠ م) وخرّب حلب وحمص وحماة وبعلبك ودمشق، وفتك باهلها، واحرق الجامع الاموي، وكثيراً من المعابد والمدارس، وسبى النساء، وداس الاولاد بخيله وبقره .

بينهم على المال والسلطان فيحتربون، ويتذابحون، ويتفانون. والكرج والارمن يتسابلون من الشمال مغيرين عائثين، ثم يعودون بالسبايا والغنائم.

تلك حالة مصر وسورية والعراق في هذا العصر. واما جزيرة العرب، والمغرب فقد كان يتنازعها دول صغيرة تختصم وتتحارب، فما اطمأنّ عرش بواحدة الا انتقل الى غيرها. واما الاندلس فقد خلت مرابعها من المسلمين بعد ان شرّدهم الفرنجة عنها.

وفي منسلخ القرن السابع للهجرة، شهدت اسية الصغرى دولة مسلمة فتية ترث ملك السلاجقة المحطم، وتقيم على انقاضه عرشاً تركياً لبني عثمان ثم لا تلبث ان تنمو وتترعرع ويشتد ساعدها، فتغزو فيتسع ملكها، فتتوغل في بلاد الروم حتى تفتتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ. (١٤٥٣ م) وتجعلها عاصمة لها.

ثم يقوم احد سلاطينها سليم الاول، فيولي وجهه شطر الشرق فيغزوه سنة ٩٢٢ هـ. (١٥١٦ م) وينتزع سورية ومصر من ايدي المماليك الشراكسة، ويخلع المتوكل على الله الخليفة العباسي، ويأخذ منه الراية والبردة والسيف ومفاتيح الحرمين. فتنتقل الخلافة للمرة الاولى من العرب بل من قريش الى الاتراك.

ثم يمتد سلطان العثمانيين الى سائر البلاد العربية كالعراق والحجاز واليمن وتونس والجزائر، ويُستعمل عليها ولاة من الاتراك.

فغير عجيب ان يكون تتوالي الحروب والمحن، وتقتيل العلماء، وتحريق المكاتب، وتفاقم العناصر العجمية، واستبدادها بالاحكام، اثر بليغ في تحدير العقول، وحط الاداب والعلوم. ولولا ان هؤلاء الاعاجم اسلموا، وكان بهم حاجة الى العلوم لما سلمت لغة القرآن.

على ان مصر والشام كانتا قبل ان يستولي عليهما بنو عثمان، مباءة الادباء والعلماء لهاربين من وجه المغول، او من وجه الفرنجة في الاندلس. ذلك بان المماليك، وان لم تكن لهم آصرة على اللغة العربية، عطفوا عليها، وقربوا اصحابها تشبهاً باسيادهم لايوبيين. ولكن ضعفهم فيها جعلهم يؤثرون الازجال العامية على الشعر الفصيح، غلب القوالون على الشعراء، والعامية على الفصحى.

وكان بالشام فضلة من الايوبيين عطفوا على اللغة وآدابها، كالملك المؤيد صاحب حماة، وهو الاديب المؤرخ المعروف بابي الفداء[1]. الا ان سلطانهم كان ضعيفاً بالاضافة الى سلطان المماليك المنبسط على القطرين معاً، فلم يكن تأثيرهم بليغاً كتأثير اولئك.

وعلى الجملة فان اللغة لم تنحدر في عهد المماليك انحدارها على عهد بني عثمان لاسباب: منها ان دولة المماليك كان وطنها عربياً. اما دولة العثمانيين فوطنها عجمي. وكان المماليك اهل جهالة جهلاء لا يعرفون غير السيف والحرب، فلم يستغنوا في تنظيم دولتهم عن علوم العرب وآدابهم، فاكثروا المدارس في مصر والشام، وقربوا العلماء ليؤلفوا لهم، ويتولوا امور دواوينهم. وكذلك العثمانيون كانوا كالمماليك في جهلهم وخشونتهم، الا انهم تحضروا بعد ان فتحوا القسطنطينية واتخذوها قاعدة لملكهم، وتحضرت لغتهم شيئاً فشيئاً بما افادت من العربية والفارسية واللغات الاوربية. واصبحت صالحة للعلوم والاداب، فاعرضوا عن لغة العرب، وكانوا قد اعتمدوا عليها برهة من الزمن، وجعلوا التركية لغة رسمية في جميع الولايات العثمانية. ولم يستثنوا الولايات التي تعمرها العناصر العربية، فإنهم استعملوا عليها حكاماً من الترك، يرفعون شأن لغتهم، ويسعون في تتريك العرب، واضعاف عصبيتهم. فهبطت اللغة في عهدهم هبوطاً مشؤوماً، وفسدت ملكة البلاغة، وتصلبت اذهان الادباء، وخيم عليهم خمول كسبات عميق، لا يستفيقون منه الا على مدافع نابوليون في مصر، ونواقيس الاديار في شعاف لبنان.

---

(١) هو السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل الايوبي ولد بدمشق سنة ٦٧٢ هـ. (١٢٧٣ م) وكان عالماً فاضلاً مؤرخاً اديباً، ولاه حماة الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر. ثم ارسل اليه شعار السلطنة، واطلق يده في دولته. توفي سنة ٧٣٢ هـ. (١٣٣١م) وتملك حماة بعده ابنه الملك الافضل ناصر الدين محمد.

ميزة العصر

الهول والفساد . الاستبداد . الضغط على حرية الفرد والجماعة .

عصر يصبغه الهول والذعر والفساد من جميع نواحيه، عصر تقتيل العلماء، واتلاف الكتب، وتخريب المدارس . عصر لم يُبق فيه هولاكو من رمق الا ليجهز عليه تيمورلنك . ولم يعن المماليك في ارهاق العرب الا ليوطئوا العقاب للعثمانيين ابناء جلدتهم، فيعمد هؤلاء الى بذر الشقاق في الطوائف خشاة ان يتواطؤوا على شق عصا الطاعة . فاقترفت من اجل ذلك المظالم، وارتكبت المحرمات، واحل القتل والترويع، ودبت عقارب السعايات والدسائس، واستعبدت الافكار، وحطمت الاقلام، وخنقت حرية الفرد والجماعة . فذل العرب، وتفرقت كلمتهم . وكان هذا العصر اسوأ العصور عليهم .